

عود إلى مكياقللى وأميره

فى كل وجهة ، وفى كل طريق من الحياة العامة فى أوربا — وفى غيرها من بلاد العالم — نجد اسم مكياقللى مذكوراً ، فى الغالب ، فى معرض السوء . فإذا رأينا سياسة الجشع والأثرة تسير عليها الدول ، وصفنا هذه السياسة بأنها مكياقللية . وإذا رأينا الدس والوقعة قلنا إن هذه سياسة مكياقللى . وهكذا صار اسم هذا السياسى والأديب علماً على كل ما هو قبيح وعلى كل سيئات الحكم ومثالب النظم . وهكذا اكتسب هذا الرجل الذى عاش فى القرن السادس عشر ، وفى عصر النهضة فى إيطاليا ، شهرة غريبة على مر الأيام . ويغلب على الظن أنها شهرة باقية ما بقيت فى العالم أمم وما بقى للدول حكام ، وستظل هذه الشهرة قائمة وباقية بقاء النظم السياسية نفسها فى العالم . لكن هل هذا الرجل جدير فى الواقع بكل هذه المثالب ؟ وهل هو رجل سوء حقاً ؟ إن من يدرس حياة مكياقللى وخدماته العامة للمدينة التى نشأ وعاش فيها ، مدينة فيرنزى — فلورنسا — لا بد أن يعلم حق العلم بأنه لم يكن رجل سوء ؛ وخدماته لتلك الدولة الإيطالية الصغيرة ، وكانت إيطاليا عندئذ منقسمة إلى دويلات متحالفة ومتنافسة ، جديرة بكل تقدير ، وكان رجلاً ذا ذهن متفوق ممتاز ، ومع ذلك ذاعت له هذه الشهرة السيئة لكتاب واحد من كتبه وضعه فى عزلة بعد أن ترك منصبه ، ورأى السلامة فى أن يقيم بضعة صغيرة له ببلدة سان كاشيانو فى ضواحي فلورنسا . وقد اضطر مكياقللى إلى هجر العاصمة بعد أن عاد الأمر فيها إلى أسرة مديتشى ، وتشقت أعضاء الحكومة التى كان يخدمها . ووضع هذا الكتاب بعد أن خدم دولته زهاء ثلاثين سنة خدمة جلية ، وشاهد أحداث تلك الأيام الحافلة بالحوادث ، وعاشر الكثيرين من أبرز رجال عصره الحافل بالعطاء . والواقع أن العصر الذى عاش فيه مكياقللى كان عصرًا عجيباً ، والمدينة التى

نشأ فيها كانت مدينة عجيبة^(١)؛ فقد كانت الدولة التي عاصمتها فلورنسا من أهم الدويلات الإيطالية وأغناها، وأكثرها تأثراً بالنهضة الأوربية التي عمت بلاد إيطاليا ثم بلاد أوربا في ذلك العصر، على أثر استيلاء الأتراك على القسطنطينية، وهروب العلماء البيزنطيين بما يحملونه من كتب ورثوها عن اليونان إلى البلاد الإيطالية. هذا ما يقوله المؤرخون عادة وإن كانت عوامل النهضة الأوربية، وبخاصة في إيطاليا، أبعد مدى من هذا التاريخ، وهي في فلورنسا أبعد مدى من غيرها من البلاد. ألم يعيش في تلك المدينة العجيبة، ويتجول في أرجائها الشاعر دانتى قبل ذلك بقرنين؟

ولد مكياڤلى في مدينة فلورنسا في عصر من أزهر عصورها، هو عصر لورنزو دى مديتشى^(٢)، الذي كان أميرها وحاكمها فعلاً، وبالإسم فقط يعتبر المواطن الأول في خدمة تلك الجمهورية، وهو الذى بثرائه ومساهمته جمع العلماء والأدباء والمصورين والنحاتين وجعل مدينته نجر المدن الإيطالية ومركز الترف والرخاء، وجعل منها مثال الحضارة بحيرها وشرها. ولكن ما لبثت هذه المدينة بعد موته أن اتجهت وجهة أخرى.

فقد عاش في زمن لورنزو برز في الحياة راهب اسمه سافونارولا^(٣)، رأى تلك الحياة العابثة التي يحياها الأثرياء في فلورنسا، ورأى البذخ والمجون وتقليد العامة لهم، فبدأ صوته يرتفع في الكنائس داعياً الناس إلى نبذ الدنيا والعمل للآخرة، مذكراً بالثواب منذراً بالعقاب، وكان الناس يستمعون إلى عظاته فيكون. فلقد عرف هذا الراهب القصير القامة الحليق الوجه، كيف يجذب قلوبهم ويستولى على عقولهم. ولم يلبث الناس أن رأوا بعد قليل من الزمن هذا الراهب الصغير يستولى على أمور المدينة ويحركها بين يديه ويقودها إلى طريق الخير، خير الآخرة لآخر الدنيا، فإذا مدينة الترف تنبذ الترف، وإذا مدينة الحضارة تعود إلى التقشف، وإذا المدينة تطرد أثرياءها وعيون أسرها، وتنقاد المواعظ سافونارولا ولسحر حديثه، وإذا المبشر يصير حاكماً بأمره في أمور الدنيا بالذات، تلك التي يندد بها. وتسير الأمور فإذا به يصطدم مع البابا اسكندر السادس

(١) ولد نقولا مكياڤلى في ٣ مايو سنة ١٤٦٩.

(٢) لورنزو دى مديتشى ١٤٤٨-١٤٩٢.

(٣) ولد سافونارولا سنة ١٤٥٢ وأحرق سنة ١٤٩٨.

صاحب السلطان الدينى الاكبر ويزداد بينهما الجفاء ، فيوقع عليه البابا وعلى مدينته عقوبة الحرمان الرهيبة ، فيقوى خصوم سافونارولا ومناهضوه ، وينفض الشعب من حوله ، ويسير هو حثيثا إلى نهاية عنيفة ، شأن مئات غيره من زعماء تلك البلاد المتقلبة ، أرادوا الخير وعملوا له ، فأنهت الحياة بهم إلى نهاية محزنة .

لم يعد آل مديتشى بعد نهاية سافونارولا ، بل أنشئت حكومة مجلس العشرة وهى التى شغل فيها الشاب مكياڤلى منصب سكرتير هذا المجلس .

خدم مكياڤلى هذه الجمهورية منذ تأليفها خير خدمة ، وعرف فضله فى المهمات التى تحتاج إلى لباقة وكياسة ونظر بعيد ، وكان يرسل إلى البلاد المختلفة ، فسافر إلى روما مرات عدة لتسوية خلافات كانت قائمة بين الجمهورية وبين الحكومة الدينية للمدينة الخالدة . وظل مكياڤلى فى خدمة مجلس العشرة إلى أن عاد آل مديتشى فتغلبوا مرة أخرى وطاردوا الجمهورية ورجالها . وحينئذ انقلب رجل النشاط والحركة والدهاء والسياسة ، رجل فكر ورجل قلم ، فأخذ يكتب ملاحظاته ويدون خواطره فى كتاب « الأمير » أولاً ، وهو كتاب يصف فيه ما يجب أن يكون عليه الأمير ، وما يجب أن يتصف به من صفات حتى يكون ناجحاً محققاً لمراميه وأغراضه . وقبل أن ينفض يديه من هذا الكتاب ابتداءً كتاب « تعليقات على الحوليات العشر الأولى لتيتو ليشيو ^(١) » وفيه يصف الجمهورية ومزاياها .

أما كتاب الأمير فقد اشتهر فى جميع أنحاء العالم ، وصار الأساس لعلم السياسة . وهو كتاب عجيب فى آرائه وأغراضه وتأثيره ؛ إذ لو استعرضنا أعمال الحكماء من عصر مكياڤلى حتى الآن — ولا نقصد الأمراء بالذات ، بل نقصد الهيئة الحاكمة المسؤولة ، فالأمراء فى العصور الحديثة لا يحكمون — لوجدنا أن الدول لم تخرج فى توطيد سلطانها ومعاملاتها بوجه عام عما جاء فى هذا الكتاب ؛ فهى لا تزال تسير على مبادئه ، تلك المبادئ السياسية التى فصل فصلا تاما بينها وبين الأخلاق ، خلقت لصاحبها السمعة الشنيعة .

لنستعرض قليلا ما جاء فيه : إنه يتبدى بالكلام عن نشأة الإمارات

(١) تيتو ليشيو المؤرخ الرومانى الشهير (٥٩ — ١٩ ق . م .)

من وراثية ومحدثة مكتسبة ، ثم يصف كلا من النوعين ، ويأخذ في بيان طريقة اكتساب الإمارات سواء أكان اكتسابها بالسلاح أم بالمصادفة الحسنة ، ويتكلم عن الذين اكتسبوا الإمارة بطرق الشر ، وكيف تقاس قوة الإمارات ، وما هي الإمارات الدينية ، وأنواع الجيوش والمرزقة منهم .

ثم يأخذ في الكلام عن الأمراء وفن الحرب ، وما يحمد الأمراء من أجله وما يذمون عليه ، وعن جود الأمير وشحه ، وعن قسوته وحلمه ، وهل الخير له أن يُحِبَّ أم أن يُخْشَى ، وكيف يجب أن يحافظ الأمراء على كلمتهم ويتجنبوا الكراهية والاحتقار ، وقيمة الحصون للأمير ، وكيفية الحصول على الشهرة . ثم يتكلم عن كتم أسرار الأمير وعن تجنب المرائين ، ولماذا خسر أمراء إيطاليا بلادهم ، وضرورة تخلص إيطاليا من المتوحشين .

وقد يرى مكياقلى في أسوأ حالاته ، على الأقل في هذا العصر ، عندما يسأل مثلاً : هل الأفضل أن يُحِبَّ الأمير أم أن يُخْشَى ؟ ثم يجيب : لعل من المرغوب فيه أن يجمع الإنسان بينهما . ولما كان من العسير جمعهما لدى شخص واحد ، فمن الأسلم للأمير أن يخشى بدلاً من أن يحب ما دام مضطراً إلى النزول عن أحد الأمرين . فالناس بوجه عام منكرون للجميل متقلبون خونة جبناء طماعون ، وهم معك ما دمت ناجحاً ، ويبدلون لك دمهم وأموالهم وحياتهم ما لم تكن لك حاجة إليهم ، فإذا احتجت إليهم انقلبوا عليك .

وفي رأيه أن كل إنسان يؤمن بأن من فضائل الأمير أن يكون وفياً وأن يعيش مستقيماً بعيداً عن الخداع ، ومع ذلك تثبت تجاربنا أن الأمراء الذين أتوا أعمالاً كبيرة لم يأبهوا كثيراً لإراقة الدماء ، وعرفوا كيف يحتالون على خداع الرجال ، وفي آخر الأمر انقلبوا على أولئك الذين وثقوا بهم . ويجب أن تعلم أن هنالك طريقتين للنضال : أحدهما القانون ، والآخر اقوة . والأول خاص بالناس والآخر بالحيوان . ولكن لما كانت الطريقة الأولى غير كافية في أكثر الأحيان وجب الالتجاء إلى الأخرى . لذلك كان من الضروري أن يعرف الأمير كيف يجمع بين الإنسان والحيوان . . . والأمير إذ يضطر لمسلك الوحوش يجب أن يسلك مسلك الأسود والثعالب . فالأسد لا يستطيع أن يحمى نفسه من الشراك ، والثعلب لا يستطيع أن يحمى نفسه من الذئاب . . . ولكن من الضروري

أن يعرف جيداً كيف يخفى هذه الصفة ، وكيف يكون خداعاً ومراثياً . ففي الناس بساطة كبيرة ، وفيهم شهوة للوصول إلى رغباتهم ، فمن يحاول أن يخدع فلا بد أنه واجد مخدوعاً . . . ليس من الواجب أن يكون الأمير حائزاً لجميع المزايا ، ولكن من الضروري جداً أن يظهر بمظهر الحائز لها .

في هذه الأقوال وفي أمثالها وجد الناس في مكياڤلى سياسة شيطانية ، وأخذوا يلومونه ويرون أن ما جاء به مخالف للفضائل ولواقع الأمور . ولو سار الأمراء على مذهبه لضلوا ؛ ولكن مكياڤلى وجد الكثيرين من المدافعين عنه وعن آرائه .

أما الدفاع عن آرائه فيقوم على أقوال من الكتاب نفسه ، فهو ينطوى على آراء حكيمة وأحياناً نبيلة لا غنى عنها للأمير أو الحاكم ، مثل قوله : « لا أريد أن أترك جانباً هاماً من هذا الموضوع ، فهو خطر لا يمكن حماية الأمراء منه إلا في صعوبة إذا كانوا شديدي الحذر نافذى البصيرة هو خطر المرائين الذين يمتلئ بهم بلاط الملوك ؛ لأن الناس يتساهلون في أمورهم ويخدعون بطريقة ما ، فلا تسهل وقايتهم من هذا الوباء ، وإذا حاولوا ذلك تعرضوا لخطر الوقوع في الاحتقار . ولا سبيل لحماية أنفسهم من المداهنين ألا بتفهم الناس أن إخبارهم بالصدق لا يضياعهم ، ولكن إذا ما أخبر كل واحد الأمير بالصدق ففي ذلك ما يقضى على الاحترام .

» لذلك كان على الأمير أن يجد سبيلاً ثالثاً ، هو أن يصطفى العقلاء في دولته ويسمح لهم وحدهم بحرية قول الصدق له ، وذلك فيما يسأل عنه وحده لا في أمور أخرى . »

وفي صفحات عدة من كتاب الأمير ، وفي صفحات أكثر من كتابه المسمى « تعليقات على الحوليات العشر الأولى من تيتو ليشو » تجد في مكياڤلى النظرة الحكيمة المجردة ، ولكنها تدل أكثر من ذلك على روح الوطنية ، والأمل في أن يجتمع شمل الدويلات الإيطالية فتؤلف وحدة كبيرة إيطالية ، تكون في مركزها وخطرها مثل الدولة الرومانية في أوج مجدها . هذا هو الحلم الذي كان يحلم به ، ولا يزال يحلم به دائماً أبناء إيطاليا المفكرون ، وهذا هو السبب الذي أدّى برجل مثل مكياڤلى في سلامة تفكيره أن يتخذ من طاغية

مثل شيزاري بوجيا ابن البابا اسكندر السادس^(١) مثالا للأمير الذي يعمل لنجاح في أغراضه . ذلك أن شيزاري بوجيا مع كل ما سجله له التاريخ من فظائع ، كان طامحاً إلى أن يجمع إيطاليا في ظل سلطان واحد ، ويعيد إليها وحدتها ويمنع عنها سلطة الفرنسيين والألمان الذين يسميهم الإيطاليون الوطنيون بالبرابرة ، وذلك بعد أن اقتطع له أبوه من أملاك الكنيسة ملكاً .

عرف ميكافلي شيزاري بوجيا وخالطه حين أرسله مجلس العشرة في بعثة سياسية ، وعرف مطامحه وآماله ، فرأى فيه قبل كل شيء الأمير الذي يحقق آمال نفسه وآمال كل مثقف في إيطاليا . ثم سارت الحوادث سيرها ومات البابا اسكندر السادس على قوته في وقت لم تكن تنتظر فيه وفاته ، وصادف أن أقعد المرض شيزاري فلم يستطع أن يتحكم في انتخاب البابا الجديد ، فانتخب البابا بيوس الثالث الرقيق الحاشية ، ولكنه لم يصر غير أشهر ثم مات ، وعلى أثر وفاته انتخب البابا يوليوس الثاني العظيم العنيف محب الفنون المكافح المقاتل ، عدو آل بوجيا ، فكانت النهاية التي أدت بشيزاري إلى الفرار ثم إلى الاعتقال في إسبانيا ثم الهروب ثم الموت مقاتلاً في بلاد بعيدة .

كل هذه الأمور يستخلص منها سكرتير مجلس العشرة العبر وهو بمنفاه في داره الصغيرة حيث ينفذ إلى مبادئ الأمور وصورها في السياسة بعد أن مارس السياسة لامتداده المضطرب لممارسة الرجل الذي خلق لهذا العمل . وهو إذ انقطعت الأسباب بينه وبين السياسة إلى غير رجعة وإلى غير أمل ، بل ربما لم تنقطع عنه أسباب الأمل الذي يرى تحقيقه بعيداً ، يكتب في عبارته الهادئة المنحوتة في جلاء كنحت التماثيل اليونانية في صفائها وإبانتها وتحديدها ، فيستخلص خلاصه الأشياء التي إن طبقتها في كل زمن تجد الأمراء أو قل ذوى الأمر يسرون عليها أرادوا ذلك أو لم يريدوا .

نك أن تصخب وتقول إن طبيعة البشرية خير من ذلك ، ولكن تمنع قليلاً في أمور هذا العالم الحديث الذي لا يعرف الأمراء وإنما يعرف الدول وقس مسلك هذه الدول بمقياس من المعايير التي وضعها ميكافلي : إن هنالك طريقتين للنضال ، أحدهما القانون والآخر القوة ، والأول خاص بالإنسان والآخر

(١) البابا اسكندر السادس ولد سنة ١٤٣١ باسبانيا وتولى عرش البابوية من ١٤٩٢ — ١٥٠٣ .

بالحيوان ، ولكن لما كانت الطريقة الأولى غير كافية في أكثر الأحيان وجب الالتجاء إلى الأخرى ؛ لذلك يجب أن يعرف الأمير كيف يجمع بين الإنسان والحيوان — عبارة مثيرة ، ولكن أليس يسير عليها أصحاب السلطان حتى اليوم ؟ قد يكون في كأس الكاتب شيء كبير من المرارة ، والواقع أنه لم يخلد إلى هدوء الضيعة في سهولة . وتستطيع أن تقرأ وصفه البديع لحياته في رسالة كتبها في الزمن الذي كان يحرر فيه كتابه « الأمير » لتعلم من أمره كثيرا ، فقد كان يستيقظ مع الفجر في كل يوم ، فيرتدى ثياب الفلاحين ويذهب إلى عمله في ضيعته وحساباته إلى المساء . فإذا كان الغروب قصد إلى المقهى حيث يجلس بين الفلاحين ليلعب الورق ويضحك ويصخب ويشاحن ، فإذا قضى هزيعا من الليل قصد إلى داره وخلع ثيابه الخشنة وارتدى ثيابا أنيقة هي التي كان يرتديها حين يقوم بعمله ويقابل الأمراء والحكام ، وفي هذه الثياب يجلس إلى كتبه وأوراقه ومحبته ليعاشر قوما مهذبين ، كما يقول .

كان سكرتير مجلس العشرة في السنوات الأخيرة من حياته يأمل العودة إلى أعماله الإدارية والسياسية . وقد لاح له هذا الأمل قريبا ، إذ طرد آل مديتشي مرة أخرى . وفي هذه اللحظة عاجلته المنية وترك تراثه تلك الكتب — وفي مقدمتها كتابه الخالد عن الأمير — التي هي جديرة بالدرس في كل وقت ، والتي تحتوي على حقائق تعتبر وستعتبر دائما أسس السياسة الحديثة .

مسي محمور